تيارات الأدب في مصر المعاصرة

بقلم الدكتور محمد مندور

ليست التيارات الادبية الموجودة في مصر الان حديثة كلها بل منها ما يرجع الى بدء نهضتنا في اواخر القرن الماضي . وقد استطاعت هذه التيارات ان تصمد امام المفاهيم الجديدة للحياة والفكر والادب لانها تستند الى أسس باقية تمليها الافكار والمشاعر وضرورات الحياة .

فالتيار التقليدي قد كان في يوم من الايام مهوى الافئدة، ومبعث الفخار . وذلك لانه نتج عن حركة بعث قوية ردت الى العالم العربي روحه وحياته بعد ان كان قد ذبل وجف واستحال الى هياكل وزخارف في العصرين العثماني والمملوكي . وجاء الادب الذي هو الآخر صورة للحياة ـ زخارف لفظية لا حياة فيها ولا فكر ولا احساس ولا مضمون ـ وقد تم هذا البعث بنوع خاص بفضل وصول اختراع انساني ضخم الى مصر والبلاد العربية نعني به فن الطباعة . فمن المؤكد ان مطبعة بولاق التي انشئت في النصف الاول من القرن الماضي قد كانت من اهم عوامل البعث العربي بفضل ما اخذت تنشره تباعا من التراث العربي القديم وتضعه في متناول ذوي الموهبة من رواد النهضة الادبية الحديثة ـ ويكفي ان ننظر في مختارات رائد البعث الشعري في مصر وبالتالي في العالم العربي كله ، محمود سامي البارودي لندرك الى اي مدى كانت روائع الشعر العربي القديم قد اصبحت بفضل الطباعة غذاء ووسيلة لبعث الشعر العربي بديباجته المشرقة ومضمونه الانساني الحي المتجاوب مع قضايا عصره الكبرى ومع خوالج النفس البشرية الغنية ، بعد ان الشعر قد انهار الى مستوى الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية لندرة القدوة الفعالة والمثل الموحي ، وكأنه قد غلف بأثواب الانحطاط وحرم من مزكيات الحياة .

وجاءت الثورة العرابية فعززت الشعور بالوطنية المصرية والقومية العربية تجابه بهما غطرسة الاتراك والجراكسة بل واحتقارهم للمصريين والعرب، مما ادى الى تقوية تيار البعث العربي واقبال الشعب عليه ذلك الاقبال الذي شجع المواهب واغرى بالانتاج ، فكان لنا اولئك العمالقة من شعراء البعث والتقليد امثال البارودي وشوقي وحافظ .

وبالرغم من أن زيادة اتصالنا بالآداب الاوروبية مباشرة او عن طريق الترجمة قد ادت الى ظهور تيار فكري ادبي جديد يدعو الى الخروج من التقليد الى الابتداع ، والى تطعيم الادب العربي الحديث باتجاهات الفكر والادب والفن الغربية وبخاصة فيما يتعلق بشعر الوجدان وضرورة تعبير الشاعر او الاديب عن نفسه تعبيرا صادقا في صور فنية تماشي اصول الادب والفن العالميين ـ نقول انه بالرغم من ظهور هذه الدعوة، فان التيار التقليدي قد ظل حيا لانه يرمز الى قومية كبيرة . فهو يمثل ثقافتنا التقليدية الراسخة في ضمائرنا وهو يدافع دفاعا حارا عن لغتنا الفصحى ونقاء تلك اللغة وصحتها . واللغة الفصحى كما هو معلوم ـ هي اوثق روابط القومية العربية لانها وسيلة التفاهم الكامل بين الشعوب العربية المختلفة التي تطورت لهجاتها المحلية تطورا يمكن احيانا أن يعوق التفاهم المتبادل وبالتالي القومية العربية ذاتها .

وهذه هي الاسباب او بعض الاسباب الهامة التي تيسر استمرار التيار التقليدي العربي الخالص حتى بعد اختفاء عمالقته الاوائل من امثال البارودي وحافظ وشوقي ومصطفى صادق الرافعي .

ولكن بالرغم من استمرار التيار التقليدي ، لم يكن بد من ان يحدث تطور نهضتنا العامة وتوثق صلاتنا بحضارة الغرب وثقافاته . تيارات فكرية وادبية جديدة كان اسبقها الى الوجود تيار الوجدان الذاتي ، وذلك لان النهضة اخذت تشعر الفرد بوجوده وبقيمته الذاتية وبضرورة التعبير عن نفسه ، مما ادى الى ظهور تيار الشعر الوجداني عند الجيل الذي ظهر في اوائل هذا القرن مثل الاساتذة عبد الرحمن شكري وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني الذين نادوا بأن الشعر وجدان وليس صحافة تسجل الاحداث العامة وتعلق عليها . وكان ظهور هذا التيار في نفس الوقت الذي ظهر فيه تيار مماثل عند شعراء المهاجر العربية في امريكا ، حتى لنرى الاستاذين عباس العقاد وميخائيل نعيمة يتبادلان التحية والتأييد والتضامن في كتاب « الغربال » للاستاذ نعيمة ، ومقدمة الكتاب الحارة التي كتبها الاستاذ العقاد .

والتقاء الحضارة الغربية بالحضارة الشرقية في بلادنا لم يكن بد من ان ينجم عنه في اول الامر انواع من الاصطدام لم تلبث ان ظهرت في صور الادب الجديدة التي اخذناها عن الغرب مثل المقالة الصحفية والقصة الادبية .

فعلى ضوء الحضارة الغربية اخذنا نرى ما في بعض عاداتنا وتقاليدنا القديمة بل ومعتقداتنا من ضرر وفساد وانحراف او تخلف عن ركب الحياة المتطورة، فأخذ ادباؤنا

يتناولون بالنقد في المقالات الصحفية كل هذه النواحي . ولعلنا نجد خير مثل لهذا الاتجاه في سلسلة المقالات التي نشرها رائد الاصلاح الاجتماعي الكبير قاسم امين للدفاع عن المرأة وضرورة تحررها من ربقة القيود القاسية وغير الانسانية التي كانت قد تكاثرت عليها خلال عصور الظلام . وقد جمعت هذه المقالات في الكتابين الخالدين « تحرير المراة » و « المراة الجديدة » . بل واتجه بعض مفكرينا الى نقل بعد كتب الاجتماع التي تكشف عن اسباب تخلفنا ووسائل نهوضنا مثل ما فعله فتحي زغلول عندما نشر في الصحف الفصول المتتابعة من كتاب « سر تقدم الانكليز السكسونيين » قبل ان يجمعها في كتاب كان له اثر كبير في تطوير مفاهيم الحياة عند شعبنا او على الاقل عند قادة الفكر فيه .

وفي اتجاه مضاد رأينا حملة عنيفة يقودها المحافظون منا ضد بعض مظاهر الحياة الغربية بحكم أن تلك المظاهر قد كان اسهل اخذا وتقليدا من جوهر الحضارة الغربية واسسها الصلبة ، فاخذوا يهاجمون لعب القمار وشرب الخمر والرقص المشترك وما الى ذلك من قشور الحياة الغربية التي تسللت الينا وخشى المحافظون على اخلاقنا وتقاليدنا الصالحة من تسللها .

وباستمرار احتكاك الحضارتين الغربية والشرقية نما تيار النقد الاجتماعي في اتجاهيه المتضادين وكان هذا هو السبب الرئيسي في ان يتخذ فن القصة الادبية عند اول ظهوره في ادبنا المعاصر الطابع الاجتماعي على نحو ما نشاهد في قصص « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحي و « ليالي سطيح » لحافظ ابراهيم . ثم قصة « زينب » التي كتبها في سنة ١٩١٠ الدكتور محمد حسين هيكل وهو لا يزال طالبا في فرنسا ونشرها تباعا في صحيفة الجريدة في سنة ١٩١٤ بعد عودته من فرنسا ، وفيها يعالج قصة حب محزنة بين فتى مصري وفتاة في الريف ينتمي كل منهما الى طبقة اجتماعية مختلفة .

هذه بعض نواحي تيار التجديد الذي ظهر نتيجة لاتصالنا بثقافة الغرب وحضارته وان يكن من الواجب ان نلاحظ ان هذا التيار التجديدي لم تتفق عليه وعلى حدوده ومبادئه كلمة الداعين اليه كما اتفقت من قبل كلمة رواد البعث فلاقوا نجاحا شعبيا كبيرا .

وربما كان الاستعمار وسيطرته والاستبداد الداخلي وجبروته من الاسباب الاساسية في عدم اتفاق الجيل الجديد على مذهب فكري او ادبي محدد ، وذلك لان هذه العوامل السياسية الخانقة قد ولّدت في نفوس الشعراء والادباء الحساسة نزعة عنيفة للحرية المطلقة وحبا لها بل تعصبا . فكل اديب او شاعر لا يقبل ان يخضع لا يمذهب او ان يضحي باية ذرة من حريته عن وعي وقبول ، واذا كان قد ظهر بالرغم من ذلك تجانس كبير في الاتجاه الفكري والادبي فان هذا التجانس لم يعد الاتجاه العام الذي حددت مجراه تضاريس الحياة اكثر مما حددته الارادة الواعية والثقافة الهادفة . ولا ادل على ذلك من ان نلاحظ مدى التفاوت الكبير بين نغمات شعراء الوجدان الذين كثر عددهم وغزر انتاجهم بفضل حركة ابولو الخالدة بريادة المرحوم الدكتور احمد زكي ابو شادي ذي النفس الخيرة والنزعة المثالية الرفيعة ، فالشابي روح ثائرة وابراهيم ناجي قلب ظامىء الى الحب متلهف عليه ، وعلي محمود طه طائر غرد مبتهج نهم الى متع الحياة الحسية والصير في قلق متأمل . . وهكذا تتفاوت نغماتهم تبعا لتفاوت امزجتهم والوان روحهم وفلسفة حياتهم وان اتفقوا جميعا في ما نسميه شعر الوجدان الذاتي او الشعر الرومانسي دون ان يتفقوا على مذهب محدد او يرسموا دروبا لهذا المذهب .

وخطونا في تطورنا الناهض خطوة اخرى فتحررنا من سيطرة الإجنبي وقوي تيار القومية العربية بحكم وحدة الكفاح والهدف ومعركة الحياة مضافة الى مقومات الوحدة التاريخية . فاخذ تيار ثوري جديد يظهر وهو تيار وطني اجتماعي جارف لم يكن بد من ان يساير الادب والفكر الفني . فاخذ جيلنا الناهض يستنكر الفردية والذاتية ويطالب الادب والادباء بأن يصرفوا حيويتهم الى قضايا الوطن العامة اقليمية كانت او قومية عربية عامة ، والى قضايا الشعب وضرورة النهوض به ورفع مستوى حياته ومعالجة مشاكله وابراز آلامه وتعضيد مطالب حياته العادلة وكأنهم يرددون بلسان الشاعر العربي القديم : —

فلا هطلت علي ولا بارض سحائب ليس تنتظم البلادا

وذلك لانهم يرون انه لا خير لمن يعيش لنفسه . وهذا هو الاتجاه الاحدث الذي نسميه اتجاه الواقعية الاشتراكية مع ما يستهدفه هذا الاتجاه من تفاؤل وثقة بالنفس وثقة بالغير واطمئنان الى المصير وقدرة على التحكم فيه .

ولكن بالرغم من قوة هذا الاتجاه الاحدث واستناده الى فلسفة حياتنا الثورية الجديدة الا انه لم يستطع ولا اظنه يستطيع ان يقضي على التيار الرومانسي الوجداني الفردي السابق . وذلك لان هذا التيار الاخير يستند الى حاجات نفسية غلابة لا سبيل الى تجاهلها او مقاومتها بل ولا ضرورة لذلك . فالانسان سيظل دائما في حاجة الى التعبير عن ذاته والتنفيس عن آلامه وآماله الخاصة والتغني بأشواق روحه ومباهج الحياة من حوله بما فيها الطبيعة الجميلة .

وهكذا نخلص الى ان حياتنا الفكرية والادبية الراهنة تجري فيها حتى اليوم تيارات ثلاثة : تيار تقليدي وتيار رومانسي وتيار واقعي اشتراكي ، وان يكن من الواضح ان التيار الواقعي الاشتراكي هو الآخذ الان في الانتشار والسيطرة بفضل فلسفتنا السياسية والاجتماعية الجديدة وهي فلسفة لا بد ان تشمل جميع ميادين النشاط .

التيار الواقعي الاشتراكي هو اذن التيار الآخذ في النمو والسيطرة على ثقافتنا الانسانية وعلى ادبنا وفننا المعاصرين ، ولكن هذا التيار قد سبق في المضمون الصورة الفنية ولا يزال امام ادبائنا وفنانينا مجهودات يجب ان تبذل للملاءمة بين هذا المضمون الجديد والصور الفنية التي تلائمه ، سواء اكانت تلك الصور قصيدة شعر او مسرحية او قصة او مقالا ثقافيا ، وذلك لان كل مضمون جديد يحتاج الى شيء كثير من الترويض حتى يسكن الى الصور التي تتمشى مع اصول الادب والفن ، وهي اصول لم يخترعها

لتفكير المجرد بل استخلصها الادباء والنقاد والمفكرون من تحليلهم لروائع الاداب العالمية. وهذه الاصول لا تعتبر قيودا ولا اغلالا للانتاج الادبي بل تعتبر وسائل اثبت الزمن قدرتها على تشكيل المضمون الادبي بالاشكال التي تزيد ذلك المضمون بروزا وقوة وتأثيرا وبالتالي نجاحا في تحقيق الاهداف المثالية التي يسعى الى تحقيقها. ومن المؤكد ان اي مضمون انساني لا بد له من صورة جمالية فنية ملائمة حتى يستجيب له الناس في يسر وسهولة بل في طرب واقبال فيفتحوا له نفوسهم لتتشبع به . فالمسرحية مثلا تحتاج الى تشويق وتصوير وحركة مادية وذهنية تستأثر بالانتباه وتشغل التفكير فيندمج المشاهد فيها وينفعل بها . واذا بمضمونها الانساني يتسرب الى نفسه عن طريق الشعور او اللاشعور وكذلك الامر في القصة . واما الشعر فلا يمكن الا ان يكون فنا جميلا ، والا فقد روعته وتأثيره وسقط مضمونه مهما كان ساميا رفيعا ، وجمال الشعر يأتي من اساليب صياغته ، فالشعر ليس تقريرا بل تصوير بياني وهو ليس تعبيرا باللغة فحسب بل هو ايضا تعبير وايحاء عن طريق موسيقاه ، وموسيقى الشعر ليست تطريبا فحسب بل هي وسيلة من وسائل التعبير والايحاء لا تقل اهمية عن التعبير اللفظي بل لعلها تفوقه ،وذلك لان موسيقى الشعر هي التي تخلق الجو وهي التي توحي بالظلال الفكرية والعاطفية لكل معنى . وقد يكون الجو وتكون تلك الظلال اكثر فاعلية في النفس من المعنى المجرد بحيث يعتبر ضعف الموسيقى في الشعر انقاصا شديدا من قدرته على التعبير والايحاء.

واذا صحت كل هذه الحقائق يكون لنا اذن ان نغتبط باستمرار التيارين التقليدي والرومانسي الى جوار التيار الواقعي الاشتراكي الجديد ، وهما بنقدهما لهذا التيار الجديد سيساعدانه بلا ريب على استكمال وسائله. فالتيار التقليدي يحرص على سلامة الصياغة اللغوية وقوتها والتجديد فيها ، والتيار الرومانسي يحرص على الجو الشعري وعلى الموسيقى وعلى ظلال المعاني المرهفة ، وكل هذه وسائل يجب ان يحرص عليها ايضا التيار الواقعي الاشتراكي الجديد لانها تزيده قوة ونفاذا الى القلوب وبالتالي قدرة على تحقيق اهدافه الانسانية الخيرة .

وهكذا يعزز هذان التياران التيار الجديد المنتصر ولكنهما يصبحان ضارين عندما يخلطان في نقدهما للتيار الجديد بين المادة والشكل اي بين المضمون والصورة او الفن على نحو ما نشاهد احيانا انصار المذهب التقليدي او المذهب الرومانسي يهاجمون التيار الجديد او على الاصح يهاجمون مضمونه باسم الفن ، حتى راينا الخصومة تتبلور بعد انحرافها بين التيار الجديد والتيارين السابقين في جبهتين:

جبهة الفن للفن وهي التي يخفي بعض دعاتها اهدافهم الحقيقية خلف الغيرة على الفن واصوله . وجبهة اخرى هي جبهة الفن للحياة التي تسوقها الحماسة للمضمون احيانا الى حد اهدار الفن واصوله ، مع ان الفن واصوله ليست اعداء للمضمون الذي يؤمنون به بل هما كما قلنا وسيلة فعالة في تقوية هذا المضمون وتقريبه من النفوس ومساعدته على تحقيق اهدافه.

وفي اعتقادنا ان هذا الخلط والتداخل سوف يتضح مع الزمن وان المضمون الانساني الجديد سوف ينتصر وان دعاة هذا المضمون انفسهم سوف يفطنون الى اهمية الفن واصوله في خدمة مضمونهم ، وعندئذ لن يكون هناك فن للفن وفن للحياة بل سيكون هناك فن للفن والحياة معا . وهو الفن المثالي الذي ابتدأ شبابنا الشوط نحوه وبقي ان يصلوا في هذا الشوط الى نهايته، وذلك بان يرتفع فنهم الى مستوى المضمون الاجتماعي الانساني الذي تعمل الثورة وتعمل القومية العربية على ترسيخه في النفوس .

القاهرة — **محمد مندور**

دار الآداب تقدم :

قضايا جديدة في أدبنا الحديث

بقلم الناقد المصري الكبير

الدكتور محمد مندور

دراسات نقدية معمقة عن الانتاج العربي الحديث

وعن مشاكل النقد والادب

صدر حديثا